

# رباعية الديمقراطية



مراد وهبة

رباعية الديمقراطية

# رباعية الديمقراطية

مراد وهبه

الناشر

الدار المصرية السعودية

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

لصاحبها العقيد شيرين ثابت

دار الكتب المصرية  
فهرسة أثناء النشر  
إعداد إدارة الشئون الفنية

وهبه ، مراد

رباعية الديمقراطية/ مراد وهبه

ط ١- القاهرة: الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، (٢٠١١)

٦٨ ص ٢٠٤ سم

رقم الإيداع : ٢٥٥٩ / ٢٠١١

تدمك : 6 - 024 - 472 - 977 - 978

١- الديمقراطية

أ- العنوان

٣٢٦،٨

الناشر

الدار المصرية السعودية

للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة

لصاحبها العقيد شيرين ثابت

E-Mail: [elmsria.alsodia@hotmail.co.uk](mailto:elmsria.alsodia@hotmail.co.uk)

<http://www.qubaaalhadetha.com>

16 أعمارات العبور - شارع صلاح سالم

الدور الثالث - مدينة نصر - القاهرة

تليفون : 02/24025777 تليفاكس : 02/22621365

محمول : 002/0123140315 - 002/0123171722

حقوق الطبع محفوظة للناشر

م 2011

## مدخل

قال الرئيس مبارك للمذيع الشهير تشارلي روز فى قناة "بى.بى.سى" الأمريكية بتاريخ 2009/8/18: " إن إدارة الرئيس جورج بوش لم تكن على صواب فى الطريقة التى انتهجتها فى نشر الديمقراطية بالمنطقة حيث إن مصر لا تقبل ضغوطاً من أية إدارة مع احترامنا لكل الحكومات". وأظن أن عبارة الرئيس هذه تعبير موجز عن إشكالية الديمقراطية. وإذا كانت الإشكالية تتطوى على تناقض فما هو التناقض إذن الكامن فى الديمقراطية؟

ونجيب بسؤال:

هل هذا التناقض كامن فى مفهوم الديمقراطية أم فى مسار الديمقراطية؟

نشأ مصطلح " الديمقراطية " فى القرن الخامس قبل الميلاد فى كتاب " تاريخ الحرب البليبونيزية " للمؤرخ اليونانى ثوسيديس " 460 - 400 ق.م " عندما ذكر عبارة رجل الدولة فى أثينا وهو بركليس: " إن أثينا هى نموذج للديمقراطية لأن دستورنا لا يحاكي

قوانين الدول المجاورة، إنما هو نموذج للآخرين. وإدارتنا تتحاز إلى الأغلبية وليس إلى الأقلية، وقوانيننا ضامنة للعدالة بالنسبة إلى الكل في شأن نزاعاتهم الخاصة، والرأى العام عندنا، يرحب بالموهبة ويجلها في كل فرع من فروع الإنجاز، ليس لأسباب طائفية بل استناداً إلى التميز وحده."

والبين من عبارة بركليس هذه أن أحداً من الأثينيين لم يكن رافضاً لتقبل هذا المعنى للديمقراطية، إلا أن ديمقراطية أثينا جرت في مسار بعد ذلك غير الذى كان يتصوره بركليس، إذ اشتعلت الحرب البلبونيزية بين أثينا وإسبرطة فى عام 431 ق.م، أى قبل موت بركليس بعامين، وانتهت بمعاهدة مؤقتة فى عام 421 ق.م، ثم استؤنفت الحرب فى عام 412 ودمرت أثينا بل دمرت اليونان، وتم احتلالها فى عام 404.

وإثر هزيمة أثينا ارتأى أفلاطون " 427 - 347 ق.م ". أن الديمقراطية هى سبب الهزيمة، ومن ثم دعا إلى استبعادها وإحلال الحكم المطلق بديلاً عنها، والحكم المطلق هو حكم الله، والمماثل لهذا الحكم على الأرض هو حكم الفيلسوف، ومن ثم فالفيلسوف فى رأى أفلاطون هو وحده القادر على أن يكون رئيساً لجمهوريته.

وتأسيساً على ذلك دعا أفلاطون إلى ضرورة صياغة البشر فى قالب واحد بحيث يسعدون ويحزنون فى أمور واحدة وفى وقت واحد، وبذلك تتحقق وحدة المدينة. ومن هنا قال أفلاطون عن المدينة إنها " إلهية " .

ومن بعد أفلاطون توقف استخدام لفظ ديمقراطية لمدة ألفى عام، وانشغل علماء السياسة بدراسة النظام الملكى والنظام الارستقراطى، وإذا ذكروا الديمقراطية فإنهم لم يذكروها إلا كنظام حكم.

وهنا لابد من إثارة هذا السؤال: لماذا توارى لفظ "ديمقراطية" لمدة ألفى عام؟

ونجيب بإثارة سؤالين: هل بسبب دعوة أفلاطون إلى حكم الله بدلاً عن حكم الشعب؟ أم هل بسبب أن الحروب مناقضة للديمقراطية؟

أظن أن فى إمكاننا العثور على الجواب عن هذين السؤالين عند أوغسطين " 354 - 430 م " فى القرن الرابع الميلادى، فهو أولاً أفلاطونى النزعة، وقد قيل فى ذلك إن الأفلاطونية هى التى قادت إلى المسيحية. ولا أدل على صحة هذا القول من أنه تفهم

المسيحية على ضوء ما انتهى إليه من الفلسفة الأفلاطونية. ثم هو ثانياً قد رتب على ضوء هذه العلاقة بين الأفلاطونية والمسيحية تأليف كتابه التاريخي " مدينة الله "، حيث ارتأى أن ثمة مدينتين: مدينة الأرض ومدينة السماء أو مدينة الله، وبينهما حرب هائلة، الأولى تعمل على نصره الظلم والثانية تعمل على نصره العدالة، والمدينتان تلتقيان في الحياة الراهنة، ولكن الصدارة لمدينة الله، ومن ثم تكون سلطة الدولة عند أوغسطين أدنى من سلطة الكنيسة، ومن هنا يلزم خضوع الدولة للكنيسة، وبذلك تنتهي المدينة الإلهية عند أفلاطون، إلى مدينة الله عند أوغسطين. وهذه المدينة بدورها تدافع عن العدالة حتى لو أدى الأمر إلى إشعال الحرب، والحرب في هذه الحالة يسميها أوغسطين حرباً عادلة. ومن مدينة الله ندخل إلى العصور الوسطى، حيث الحق الإلهي للحاكم.

وتأسيساً على هذا المسار يمكن القول بأن اختفاء لفظ "ديمقراطية"، مردود إلى السببين معاً: دعوة أفلاطون إلى حكم الله ودعوة أوغسطين إلى الحرب العادلة بحكم خضوع الدولة لحكم الله، ومعنى ذلك أن حكم الله مناقض للديمقراطية.

والسؤال بعد ذلك:



ماذا يعنى حكم الله؟

هل يعنى أن الله هو الذى يحكم وليس الإنسان. وإذا كان ذلك كذلك أفليس يعنى ذلك أن الله متغير بتغير البشر، وهذا تناقض غير مشروع بحكم ثبات الله وعدم تغيره؟

والسؤال إذن:

ماذا يحدث لو أزيل هذا التناقض غير المشروع؟

هل تعود الديمقراطية؟ وكيف تعود؟

أجيب عن هذا السؤال تحت عنوان "رباعية الديمقراطية".

## الفصل الأول

---

# رباعية الديمقراطية

## العلمانية

هذه الرباعية مكونها الأساسى العلمانية ومكونها النهائى الليبرالية، وبينهما العقد الاجتماعى والتتوير، ولكل مكون من هذه المكونات الأربعة معنى وقصة، وأبدأ بالعلمانية وأتساءل:

ما العلمانية؟

عند العرب حدث اضطراب فى معنى ضبط الكلمة، فَمَن فتح العين أراد النسب إلى العالم، ومَن كسر العين أراد النسب إلى العلم. وجاء فى " المعجم الوسيط " فى الطبعة الثالثة الصادرة عن مجمع اللغة العربية ( 1985 ) أن العلمانى نسبة إلى العلم بمعنى العالم وهو خلاف الدينى والكهنوتى، ومن ثم يكون ضبط كلمة علمانى بكسر العين خطأ شائعاً بين طائفة المتقنين، غير مبالية بسلامة نطق الكلمة.

أما عند الفرنجة فالعلمانية تعنى العالم المتزمن بالزمان، أى عالم له تاريخ، ومن هذه الزاوية نقال العلمانية على العالم الزمانى والنسبى، أى المتحرر من الصيغ المطلقة.

هذا عن المعنى اللغوي للعلمانية فماذا عن قصتها؟

بداية قصتها في القرن السادس قبل الميلاد عندما أعلن الفيلسوف اليوناني فيثاغورس نظرية دوران الأرض مع تحذيره لتلاميذه من إفشاء هذه النظرية. وقد كان محقاً في هذا التحذير لأنه مجرد أن تخلى تلاميذه عن هذا التحذير وأفسوا النظرية أحرقت الجماهير الدار التي كان يجتمع فيها فيثاغورس مع تلاميذه، وقيل إن فيثاغورس لم يصب بضرر لأنه كان متغيباً عن الدار يوم الحريق.

وفي القرن الخامس قبل الميلاد تطور معنى العلمانية عند الفيلسوف اليوناني بروتاغوراس، إذ قال: " إن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً "، ورتب على هذا القول نتيجة مهمة وهي أن الإنسان عاجز عن معرفة الحقيقة المطلقة، أو بالأدق عاجز عن معرفة أى حقيقة فاتهم بالإلحاد وحُكم عليه بالإعدام وأحرقت مؤلفاته ولكنه فرّ هارباً، ومات غرقاً أثناء فراره.

وفي القرن السادس عشر، أى بعد عشرين قرناً من الحكم بالإعدام على بروتاغوراس نشر العالم الفلكي البولندي نيقولا كوبرنيكس كتابه الشهير المعنون " عن دوران الأفلاك " دلت فيه

على دوران الأرض، وبالتالي على عدم مركزيتها للكون. وكانت لديه قناعة - وهو يحتفظ بسرية هذا الكتاب الذى قضى فى تأليفه ستة وثلاثين عاماً - بأن أشخاصاً سيطلبون بإعدامه هو وأفكاره، ولكنه كان على وعى بأن عقله يجب ألا يذعن لعقول الدهماء. وفى 24 مايو 1543 جاءت نسخة مطبوعة من كتابه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. وفى 5 مارس 1616 قررت محكمة التفتيش فى روما تحريم كتابه من التداول بدعوى أنه كافر.

ثم جاء جاليليو وأعلن انحيازه لنظرية كوبرنيكس. وفى عام 1632 نشر كتابه المشهور المعنون " حوار حول أهم نسقين فى العالم " الذى يدحض فيه نسق بطليموس وفكرته المحورية أن الأرض هى مركز الكون وأن الأفلاك هى التى تدور حولها، ويدعو إلى نسق كوبرنيكس، فصودر الكتاب واستدعى جاليليو إلى روما للمثول أمام ديوان التفتيش لمحاكمته فأنكر وأقسم وهو راعع على ركبتيه، ثم وقع بإمضائه على صيغة الإنكار والقسم، ويحكى أنه بعد التوقيع ضرب الأرض برجله وقال فى صوت هامس " ومع ذلك فهى تدور ".

ومن بعد جاليليو جاء الفيلسوف الإيطالى جيوردانو برونو.

كان يعتقد في نسبية المكان والحركة والزمان فانتهى إلى أن الإنسان ليس في إمكانه الوصول إلى يقين مطلق، ومن هنا كان من الميسور عليه أن يدافع عن نظرية كوبرنيكس القائلة بأن الأرض تدور حول الشمس، وبالتالي فإنها لم تعد مركزاً للكون فأعدم حرقاً من قبل السلطة الدينية.

والسؤال إذن:

لماذا تعتبر نظرية " دوران الأرض " عند كوبرنيكس هي بداية العلمانية في القرن السادس عشر أو بالأدق في عام 1543 وهو عام صدور كتاب كوبرنيكس؟

لأن هذه النظرية تعنى أن الأرض لم تعد مركزاً للكون، وعندما لا تكون الأرض مركزاً للكون لا يكون الإنسان بدوره مركزاً للكون، وعندما لا يكون الإنسان كذلك فلن يكون في إمكانه امتلاك الحقيقة المطلقة. ويترتب على ذلك أن يكون الإنسان محكوماً بما هو نسبي، وحتى لو تطلع إلى اقتناص المطلق فلن يكون في إمكانه اقتناصه، ومع ذلك فإن الإنسان لن يتوقف عن توهم تحقيق اقتناصه. ومن هنا كان تعريفى للعلمانية بأنها " التفكير في النسبي بما هو نسبي وليس بما هو مطلق " .

ويترتب على هذا التعريف ثلاث نتائج:

النتيجة الأولى، أن من يؤيد نظرية دوران الأرض هو علماني بالضرورة، وأن من يرفض العلمانية يرفض دوران الأرض بالضرورة.

النتيجة الثانية، أن القول بأن العلمانية هي فصل الدين عن الدولة هو قول في حاجة إلى تصويب لأن هذا الفصل معلول للعلمانية التي هي العلة في هذا الفصل، ومعنى ذلك أنه عندما يكون أسلوب تفكيرك علمانياً يكون في إمكانك قبول فصل الدين عن الدولة وعكس ذلك ليس بالصحيح.

ومن هنا يمكن القول بأن العلمانية أسلوب في التفكير قبل أن تكون أسلوباً في السياسة.

## نظرية العقد الاجتماعى

إذا كانت نشأة العلمانية فى القرن السادس عشر مردودة إلى نظرية دوران الأرض للعالم الفلكى البولندى كوبرنيكس فإن نشأة نظرية العقد الاجتماعى فى القرن السابع عشر مردودة إلى مفهوم " الموافقة " للفيلسوف الإنجليزى جون لوك. وإذا كانت العلمانية هى المكون الأول والأساسى للديمقراطية فنظرية العقد الاجتماعى هى المكون الثانى.

والسؤال بعد ذلك هو على النحو الآتى:

ما العلاقة بين نظرية العقد الاجتماعى والموافقة؟

أثار لوك هذا السؤال فى كتابه المعنون " رسالتان عن الحكومة".

فى الرسالة الأولى الفكرة المحورية تدور حول تدمير مبدأ الحق الإلهى للملك، أى أنه ليس من حق الملك الزعم بأن سلطانه مستمد من سلطان الله، إذ هو مستمد من سلطان الشعب. وفى



الرسالة الثانية الفكرة المحورية تدور حول أصل المجتمع، إذ المجتمع لم يكن موجوداً مع بداية وجود بنى البشر، وإنما الذى كان موجوداً هو ما يسميه لوك " حالة الطبيعة"، حيث كل إنسان هو قانون نفسه، ولهذا لم يكن ثمة سلام، فالضعفاء لم يكن لديهم من يحميهم من الأقوياء، والأقوياء أنفسهم كانوا فى ذعر من منافسيهم، الأمر الذى أفضى فى النهاية إلى تكوين مجتمع بـ" عقد اجتماعى" ينص على " موافقة " البشر على التنازل عن بعض حقوقهم لحاكم يأتى بإرادتهم فى مقابل أن يحقق لهم الأمن والأمان.

ويلزم من ذلك أن يكون سلطان الحاكم سلطاناً نسبياً وليس سلطاناً مطلقاً. ومن هنا تكون نظرية العقد الاجتماعى مؤسسة على العلمانية بحسب تعريفى لها بأنها " التفكير فى النسبى بما هو نسبى وليس بما هو مطلق ".

ويلزم من ذلك أيضاً أن المفاهيم المترتبة على العقد الاجتماعى تكون مفاهيم نسبية بالضرورة. ويأتى فى مقدمة هذه المفاهيم مفهوم التسامح. وقد حرر لوك " رسالة فى التسامح " نشرها فى عام 1689، أى قبل عام من صدور كتابه " رسالتان عن الحكومة"، وقد نشر " التسامح " و " الرسالتان " دون ذكر اسم

مؤلفهما جون لوك، وسبب ذلك مردود إلى أنه قد اتهم بالتورط في مؤامرة ضد الملك فهرب من إنجلترا إلى هولندا، وكان ذلك الملك هو جيمس الثاني. كان كاثوليكياً متعصباً إلى الحد الذي أراد فيه أن يتحالف - بتعصبه - مع فرنسا وروما. وبسبب هذا التعصب قام الشعب بثورة وخلعه من عرشه. وسميت هذه الثورة باسم " الثورة الإنجليزية المجيدة ".

والسؤال بعد ذلك:

ماذا يعنى التسامح عند لوك؟

ثمة عبارات فى " رسالة التسامح " كاشفة عن معنى التسامح، وأنا أنتقى منها أربع هى على النحو الآتى:

" ليس من حق أحد أن يقتحم، باسم الدين، الحقوق المدنية والأمور الدنيوية ". " فن الحكم ينبغى ألا يحمل فى طياته أية معرفة عن الدين الحق ". " خلاص النفوس من شأن الله وحده ". "الله لم يفوض أحداً فى أن يفرض على أى إنسان ديناً معيناً ".

والسؤال إذن:

ما مغزى هذه العبارات؟

مغزاها، عند لوك، أن التسامح يستلزم ألا يكون للدولة دين حتى لو كان هذا الدين، من بين الأديان الأخرى، هو دين الأغلبية لأنه لو حدث عكس ذلك، أى لو كان للدولة دين الأغلبية فتكون هذه الأغلبية طاغية بحكم طبيعة الدين من حيث هو مطلق. والطاغية بحكم كونه إفرازاً من المطلق، هو مطلق بالضرورة، وعندئذٍ يتمتع التسامح بحكم أنه نسبي لأنه من إفراز العقد الاجتماعى المؤسس على العلمانية. إذن ثمة علاقة عضوية بين التسامح والعلمانية.

والسؤال إذن:

ماذا تعنى النسبية فى التسامح؟

جواب لوك أن النسبية فى التسامح تعنى أن التسامح لا يمكن أن يكون بلا حدود. ففي رأيه أن الحاكم ينبغى عليه ألا يتسامح مع الآراء المضادة للمجتمع الإنسانى أو مع نقيض القواعد الأخلاقية الضرورية للمحافظة على المجتمع المدنى، ومعنى ذلك أن التسامح ينطوى على نقيضه وهو اللاتسامح.

وقد أثرتُ هذه الإشكالية فى مؤتمر إقليمى عقده فى جامعة الدول العربية فى نوفمبر عام 1981 تحت عنوان " التسامح

الثقافى"، وبسبب هذا العنوان كان ثمة تخوف، لدى المؤسسة الغربية التى كانت الداعم الأساسى لهذا المؤتمر، لأن تناول قضية التسامح يستلزم تناول قضية التعصب. وقد قيل وقتها إن التعصب هو الذى اغتال الرئيس السادات، وهو الذى كان يهدد الدولة بإحداث انقلاب أو ثورة. وقد أشرت إلى هذا التخوف فى الجلسة الافتتاحية، إذ قلت فيما قلت إن هذا المؤتمر سيواجه تناقضات عديدة، ومن هذه التناقضات أن التسامح بلا حدود يدمر التسامح، وأن الإبداع إفراز من التعصب على نحو ما حدث لإبداع كوبرنيكس الخاص بنظرية دوران الأرض، فهذه النظرية تم إبداعها فى زمن كان محكوماً بمحاكم التفتيش فى العصور الوسطى الأوروبية.

وكان السؤال المثار بعد ذلك:

هل فى الإمكان رفع هذه المتناقضات؟

وكان جوابى أن هذا السؤال يستلزم العودة إلى الجذور، ولكن أية جذور؟ هل هى جذور التسامح أم جذور عدم التسامح، أو بالأدق التعصب لأنه هو الذى كان سائداً ولا يزال؟

وأظن أن البحث عن جذور التعصب لم يكن من مهمة نظرية العقد الاجتماعى، وإنما من مهمة التتوير فى القرن الثامن عشر.

## التنوير

إذا كان سلطان الحاكم - فى نظرية العقد الاجتماعى عند الفيلسوف الإنجليزى جون لوك - سلطاناً نسبياً وليس سلطاناً مطلقاً بدعوى أن الشعب وليس الله هو الذى أتى به حاكماً فإنه يكون بالضرورة علمانياً لأنه يفكر فى إطار ما هو نسبى وليس فى إطار ما هو مطلق. وإذا كان الحاكم علمانياً فهو بالضرورة متسامح، لأن التسامح يستلزم قبول الاختلاف.

ولكن ماذا يفعل الحاكم إذا كان المختلف معه متعصباً؟

ونجيب بسؤال: مَنْ هو المتعصب؟

الجواب: هو الذى يشتهى انتصار عقيدته على عقيدة الآخرين، وهو الذى يشتهى، عند اللزوم، الاستعانة بالعنف لتدمير عقيدة هؤلاء. ولهذا يقال عن المتعصب إنه دوجماتيقي. والدوجماتيقي لفظ معرب ويعنى توهم امتلاك الحقيقة المطلقة. وإذا تمادى الدوجماتيقي فى هذا الوهم فإنه يدخل فى "سُبات دوجماتيقي". وهذا المصطلح قد صكه الفيلسوف الألمانى

عمانوئيل كانط الذى يقال عنه إنه يقف عند قمة التنوير الأوروبى  
فى القرن الثامن عشر.

والسؤال إذن:

ما التنوير؟

الجواب الشائع عن هذا السؤال هو جواب كانط فى مقالته  
المشهورة بعنوان " جواب عن سؤال: ما التنوير؟ " وجوابه أن  
التنوير هو إعمال العقل من غير معونة الآخرين، الأمر الذى يمكن  
معه القول بأنه لا سلطان على العقل إلا العقل نفسه. ومعنى ذلك  
أن لدى كل منا عقليْن: عقل يفكر ثم يعكس على ذاته فيكون عقلاً  
آخر يفكر فيما يفكر فيه. وهذا العقل الثانى هو العقل الناقد.

والسؤال بعد ذلك:

ما وظيفة كل من العقليْن؟

جواب كانط أن العقل الأول مكلف بالبحث عن أجوبة  
لمسائل ليس فى مقدوره الإجابة عنها. وهذه المسائل تدور حول  
المطلق سواء كان هذا المطلق هو الله أو الدولة. وعدم القدرة على  
الإجابة عنها يعنى استحالة اقتناص المطلق. ومن هنا يميز كانط

بين حالتين: حالة البحث عن المطلق وهي حالة مشروعة، وحالة اقتناص المطلق وهي حالة غير مشروعة، لأن العقل بمجرد أن يتوهم أنه قد اقتنص المطلق فإنه يسقط في الدوجماتيقية. والذي يمنعه من الوقوع في ذلك الوهم هو العقل الثانى وهو العقل الناقد، أو بالأدق هو ذلك العقل العلمانى الذى لا يفكر إلا فيما هو نسبى، وليس فيما هو مطلق. وهذا التعريف للعقل الثانى يعنى عدم نفى المطلق، ولكنه يعنى كذلك أن هذا المطلق من المحال اقتناصه ومن ثم يمتنع السقوط فى الدوجماتيقية.

والسؤال بعد ذلك:

ماذا يحدث لو سقطت البشرية فى الدوجماتيقية؟

وفي صياغة أخرى:

ماذا يحدث لو اقتنص كل مجتمع مطلقاً معيناً؟

يصبح لدينا عدة مطلقات. ولكن المطلق لا يتعدد، إذ هو واحد بحكم طبيعته، فإذا تعددت المطلقات تدخل فى صراع بل تدخل فى حروب، إذ تعايش المطلقات أمر محال. وإذا جاز لنا الاستعانة بمصطلحات دارون صاحب نظرية التطور يمكن القول بأن المطلقات المتعددة تدخل فى صراع من أجل الوجود، والبقاء

للأصلح. وأنا هنا أتحدث في مسألة البقاء للأصلح وأقول لا بقاء للأصلح لأنه ليس ثمة ما هو أصلح بين المطلقات. وهذا هو ما أسميه " جريمة قتل لاهوتية " .

ولهذا يمكن اعتبار التنوير المؤسس على العلمانية أعظم ثورة في تاريخ البشرية تربي البشر على كيفية اجتثاث هذه الجريمة اللاهوتية. بيد أن هذه التربية ليست بالأمر الميسور. فقد حاول كانط في كتابه المأساوى وعنوانه " الدين فى حدود العقل وحده" أن ينهى الصراع بين المطلقات فارتأى أن تعدد الأديان إنما يكون من حيث الشكل بحكم تعدد الطقوس والعبارات الخارجية، أما من حيث المضمون فالدين واحد لأنه يقوم على الأخلاق، وليس على أى شىء آخر. يقول: " إن كل ما قد يتوهم الإنسان أنه يستطيع عن طريقه أن يكسب رضاء الله - فيما عدا اتخاذ مسلك أخلاقى طيب فى حياته - إنما هو محض هذيان دينى أو مجرد عبادة زائفة لله ". و يترتب على ذلك تأويل النصوص الدينية تأويلاً رمزياً، ومن ثم نزرع منها السمة المطلقية دون أن ننفي المطلق، لأن المطلق، فى هذه الحالة، يصبح حالة عقلية لا علاقة لها بتنظيم المجتمع لأن تنظيم المجتمع محكوم بعقد اجتماعى هو مجرد موافقة بشرية محكومة بالقانون.



هذا موجز لما ورد في كتاب كانط " الدين في حدود العقل وحده ". وعند صدوره في عام 1793 تلقى كانط خطاب لوم رسمياً من وزير المعارف باسم الملك جاء فيه أنه يستهين بالعقيدة الدينية، وأن هذه الاستهانة مرفوضة، وأن عليه أن يكف عن هذا المسلك، وإذا لم يذعن لهذا المطالب فالعاقبة سيئة. وقد أرسل كانط خطاب اعتذار إلى الملك جاء فيه أن موقفه الفلسفي يحترم المسيحية، وتعهده بعدم الكتابة في الدين بصفته "تابعاً جد أميناً لجلالة الملك"، وهذه العبارة قصد منها كانط أن تعهده مؤقت بحياة الملك. وبالفعل عاد إلى الكتابة في المسائل الدينية بعد وفاة الملك عام 1797.

والسؤال بعد ذلك هو على النحو الآتي:

هل الدين مسألة سياسية؟

أو في صياغة أخرى:

هل الدفاع عن مطلق معين من مستلزمات الحاكم، والتتوير - من حيث هو المكون الثالث للديمقراطية - هو على النقيض من ذلك؟

## الليبرالية

الليبرالية لفظ مُعرب، واللفظ المُعرب هو اللفظ المصبوغ بصبغة عربية عند نقله بلفظه الأجنبي إلى اللغة العربية. واللفظ الأجنبي هنا هو Liberalism وهو مشتق من اللفظ اللاتيني Liberalis ومعناه " الإنسان الحر " .

وبعد ذلك ثمة سؤالان:

متى نشأ مصطلح الليبرالية؟

وما معناه؟

عن السؤال الأول نجيب بأن ثمة ثلاثة أقاويل عن نشأة الليبرالية. قيل أولاً إن عام 1812 هو بداية تداول هذا المصطلح لتحديد هوية حزب سياسى أسباني.

وقيل ثانياً إن نشأة الليبرالية ملازمة لنشأة الرأسمالية بدعوى أن الرأسمالية هي الطريق إلى تحقيق الغاية من الليبرالية وهي حرية الفرد.

وقيل ثالثاً إن حروب الأديان في القرنين السادس عشر والسابع عشر في أوروبا قد انبثقت عنها الليبرالية، لأن التسامح هو الطريق إلى منع الحروب، وهو في الوقت نفسه الطريق إلى الليبرالية من حيث إن التسامح يستلزم الحرية.

هذا عن السؤال الأول، فماذا عن السؤال الثاني؟

ثمة ثلاثة تعريفات لليبرالية:

التعريف الأول يحصرها في حماية الملكية الخاصة، وحيث إن الملكية الخاصة هي المكون الرئيسي للرأسمالية، فالعلاقة إذن بين الليبرالية والرأسمالية علاقة عضوية، ومن ثم فإن من يرفض الملكية الخاصة ويدعُ إلى الملكية العامة يقف مع ماركس ضد الليبرالية.

والتعريف الثاني يوجزها في قدرة الفرد على تحديد غاياته بنفسه.

والتعريف الثالث أن الليبرالية تعنى أن سلطة الفرد فوق سلطة المجتمع.

وأنا أوتر التعريف الثالث على التعريفين الأول والثاني لأنه

يتناول بدقة تحديد العلاقة بين الفرد والمجتمع. فالملكية الخاصة، فى التعريف الأول، هى ملكية الفرد وليست ملكية المجتمع. وفى التعريف الثانى اختصاص الفرد بتحديد غاياته يجعله مستقلاً عن المجتمع. ومعنى ذلك أن التعريف الثالث هو الأفضل لأنه لا يراوغ فى تحديد العلاقة بين الفرد والمجتمع.

وأظن أن الفيلسوف الإنجليزى جون ستيوارت مل هو الذى انشغل بالبحث فى ذلك التعريف الثالث فى كتابه المشهور والمعنون " عن الحرية "، ولذلك يقال عنه إنه الفيلسوف المنطّر للبرالية فى القرن التاسع عشر.

والسؤال إذن: ماذا تعنى الحرية عند هذا الفيلسوف؟

الحرية، عنده، تكمن أولاً فى تحديد العلاقة بين الحكام والمحكومين، وتكمن ثانياً فى تحديد العلاقة بين الفرد والمجتمع. عن العلاقة الأولى يكون المحكومون مهمومين بالدفاع عن أنفسهم وذلك بالحد من سلطة الحكام، وتسهم الأحزاب فى الحد من هذه السلطة، ولكن مع تواصل الصراع فى اتجاه أن يكون المحكومون هم الذين يختارون الحكام حتى يكون لهم الدور الفعال فى إحداث تطابق بين مصالح المحكومين ومصالح الأمة.

إلا أن ثمة ظاهرة جديدة بزغت من بين المحكومين وهى  
فئة من الشعب زعمت أنها الأغلبية وراحت تقهر الأقلية، الأمر  
الذى أدى بهذه الأغلبية إلى الطغيان وأطلق عليها جون ستيوارت  
مل " طغيان الأغلبية". ومع الوقت تحول هذا الطغيان من المجال  
السياسى إلى المجال الاجتماعى، ومن ثم صك مصطلح " طغيان  
الرأى العام"، وهو يعنى الزعم بأن من حق المجتمع أن يطلب من  
جميع أعضائه الانصياع للرأى العام. ومل لا يقبل طغيان الرأى  
العام إلا إذا كان مرهوناً بعدم وأد حرية الفكر وحرية التعبير، فإذا  
حدث ووأد الرأى العام هذه الحرية فمعنى ذلك أن ما يقوله الرأى  
العام هو حقيقة مطلقة. المطلوب إذن عدم الوقوع فى براثن الحقيقة  
المطلقة حتى نتجنب وأد الحرية.

والسؤال إذن: كيف نحقق هذا المطلوب؟

جواب مل أن على الدولة والمجتمع أن يكونان على قناعة  
بأن الرأى المعارض للرأى العام يمكن أن يكون صائباً. أما أنا  
فأرى أنه كان على مل أن يتعمق مفهوم الحقيقة المطلقة الذى يعنى  
" توهم " امتلاك الحقيقة المطلقة. وقد كرس كانط فلسفته لإزالة هذا  
الوهم من أجل تأسيس التنوير، إلا أن هذا التأسيس لم يكن ممكناً

من غير نظرية العقد الاجتماعي عند لوك، وهذه لم تكن ممكنة من غير العلمانية عند كوبرنيكس.

ومع استكمال التعمق لمفهوم الحقيقة المطلقة عند مل يمكن إضافة ليبرالية مل إلى ثلاثية العلمانية والعقد الاجتماعي والتنوير، فتكون لدينا "رباعية الديمقراطية".

## الفصل الثاني

---

ماذا فعلنا بـ « رباعية الديمقراطية » ؟





## اغتلنا العلمانية

إذا كانت " رباعية الديمقراطية " هى العلمانية ونظرية العقد الاجتماعى والتتوير والليبرالية، وإذا كانت هذه المكونات قد استغرقت أربعة قرون من أجل تأسيس الديمقراطية فى الغرب، فماذا فعلنا بها فى مصر؟

نجيب عن هذا السؤال بالمكون الأول والأساسى وهو العلمانية، ونتساءل عما قيل عنها وعن نتائج هذا القيل.

قيل عنها أولاً إنها ضد الدين، ولهذا فهى تحت على الكفر والزندقة والإلحاد.

وقيل عنها ثانياً إنها ظاهرة خاصة بالغرب ولا تستقيم مع الموروث الدينى المصرى، ومن ثم لا يلزم استيرادها.

والسؤال إذن:

ما مدى سلامة هذين القولين؟

جواب هذا السؤال عند العلمانيين المصريين وأنا أنتقى  
منهم ثلاثة: فرح أنطون وفرج فودة ونجيب محفوظ.

أبدأ بفرح أنطون وأتساءل:

ماذا حدث له؟

أصدر كتاباً عنوانه " ابن رشد وفلسفته " فى عام 1903. اتخذ  
من فلسفته منطلقاً للدعوة إلى تأسيس عقل علمانى يفصل بين الدين  
والدولة. وإثر صدور الكتاب أعلنت مجلة "المنار" لصاحبها الشيخ  
رشيد رضا أن مجلة "الجامعة"، التى يرأسها فرح أنطون، التى  
كانت تنشر الكتاب مسلسلاً، قد أهانت العقائد الإسلامية، كما أهانت  
أئمة المسلمين. وعندما مات رشيد رضا تولى مسؤولية مجلة  
" المنار " الشيخ حسن البناء، مؤسس حركة الإخوان المسلمين. ومن  
يومها والعلمانية هى العدو اللدود لهذه الحركة.

وعندما أصدرت الهيئة المصرية العامة للكتاب سلسلة من  
كتب التنوير لمواجهة الإرهاب والتطرف، نشرت كتاب فرح  
أنطون بعد أن حذفت منه المقدمة التى يدعو فيها فرح أنطون  
إلى فصل الدين عن الدولة، كما حذفت الحوار الذى دار بينه  
وبين الشيخ محمد عبده !

وفى 8 يونيو 1992 اغتيل العلماني فرج فودة، إذ قتله أصولى أمى استناداً إلى فتوى دينية. وقتله هكذا شاهد على سلامة رأى فرج فودة فى أن العقل المصرى فى أزمة، وأزمته تكمن فى أنه معطل ولا يفكر إلا بالمطلق.

يبقى نجيب محفوظ .. كان يدعو إلى العلمانية فى ثنايا قصصه ورواياته وبالذات رواية " أولاد حارتنا " التى دفعت به إلى نيل جائزة نوبل. إلا أن دعوته كانت مغلفة برموز يمتنع معها أن يكون صريحاً. فمن أبطال روايته رجل لقيط اسمه عرفة يمارس السحر، والسحر عنده مجموعة من الأدوية صنعت من مواد غريبة ليشفى الناس من المرض. وعرفة اسمه مأخوذ من المعرفة والمعرفة تشير إلى العلم.

وهنا سؤالان:

السؤال الأول: ما الذى دفع نجيب محفوظ إلى وصم العلم

بأنه لقيط؟

أغلب الظن أنه يريد القول بأن العلم ليس منزلاً من الله

وليس على علاقة بالأديان.

والسؤال الثانى: ما الذى دفع نجيب محفوظ إلى وصم العلم بالسحر؟

أغلب الظن كذلك أنه يريد القول بأن العلم - فى بدايته - كان غريباً على الناس، وكان غامضاً، والغريب فى أمر عرفة أنه كان يسجل علمه وسحره فى كراسة. وعندما مات " عرفة " لم يعثر أحد على الكراسة.

والسؤال بعد ذلك هو على النحو الآتى:

هل عثر صاحب الفتوى الدينية بضرورة قتل نجيب على هذه الكراسة فأوعز إلى شاب أمى أصولى بقتله فى 14 أكتوبر 1994، إلا أن القتل لم يصل إلى منتهاه؟

وتأسيساً على ذلك يمكن القول بأن العلمانية فى مصر فى حالة اغتيال، إما معنوياً كما فى حالة فرح أنطون، وإما جسدياً كما فى حالة فرج فودة ونجيب محفوظ. وسبب ذلك مردود إلى حركة الإخوان المسلمين.

## صادرنا نظرية العقد الاجتماعى

شاعت نظرية العقد الاجتماعى فى أوروبا فى القرن السابع عشر بفضل فيلسوفين انجليزيين أحدهما توماس هوبز والآخر هو جون لوك، إلا أن بينهما اتفاقاً وافتراقاً. الاتفاق يكمن فى تحديد العلاقة بين الحاكم والشعب، وهى علاقة قائمة على تنازل كل فرد من أفراد الشعب عن بعض حقوقه لسلطة عامة من أجل تحقيق الأمن والأمان. أما الافتراق فهو قائم فى أن السلطة العامة، عند هوبز، هى سلطة مطلقة وبالتالي يكون من واجب الفرد الخضوع للمطلق، ومن ثم يعيدنا هوبز مرة أخرى إلى الحق الإلهى للحاكم. أما لوك فإنه يقف ضد الحكم الإلهى للحاكم لأن المجتمع، فى رأيه، هو من صنع البشر وليس من صنع الله. والمقابل المصرى لجون لوك هو الشيخ على عبدالرازق الذى أصدر كتابه المأساوى واشتهر به وعنوانه " الإسلام وأصول الحكم " ( 1925 ). جاء فيه أن ثمة مذهبين فى مسألة الخلافة عند المسلمين، المذهب الأول أن الخليفة يستمد سلطانه من الله فى أرضه، ولذلك فإن الله نفسه

هو الذى يختار الخليفة. وهذا المذهب فاش عند المسلمين. أما المذهب الثانى فهو القائل بأن الخليفة يستمد سلطانه من الأمة، إذ هى مصدر قوته.

ثم يقول معقّباً على هذين المذهبين: " مثل هذا الخلاف بين المسلمين فى مصدر سلطان الخليفة قد ظهر بين الأوروبيين وكان له أثر فعلى فى تطور التاريخ الأوروبى. ويكاد المذهب الأول يكون موافقاً لما اشتهر به الفيلسوف " هوبز " من أن سلطان الملوك مقدس وحقهم سماوى. وأما المذهب الثانى فهو يشبه أن يكون المذهب نفسه الذى اشتهر به الفيلسوف " لوك ". والجدير بالتنويه فى هذا القول أن على عبدالرازق يلفت الانتباه إلى أن ثمة تماثلاً بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية فى تناول مسألة الحكم المطلق. والجدير بالتنويه أيضاً أن على عبدالرازق أثر لوك على هوبز، لأن هوبز من أنصار الحق الإلهى للحاكم أو من أنصار الخلافة على حد التعبير الإسلامى. أما لوك فهو من معارضى الحق الإلهى أو من أنصار إنكار الخلافة.

والسؤال بعد ذلك:

ماذا حدث للشيخ على عبدالرازق؟

قدمت إلى مشيخة الجامع الأزهر عرائض وعليها إمضاء جمع غفير من العلماء بدعوى أن كتاب على عبدالرازق يحوى أموراً مخالفة للدين. ومن أهم هذه الأمور قول مؤلفه إن حكومة أبى بكر والخلفاء الراشدين من بعده رضى الله عنهم كانت لا دينية.

وفى 12 أغسطس عام 1925 صدر حكم من شيخ الجامع الأزهر بإجماع أربعة وعشرين عالماً من هيئة كبار العلماء إخراج الشيخ على عبدالرازق من زمرة العلماء وطرده من وظيفته وعدم أهليته للقيام بأى وظيفة عمومية دينية كانت أو لا دينية.

وفى 20 أغسطس عام 1925 أيد زعيم الأمة سعد زغلول قرار هيئة كبار العلماء قائلاً: " لقد قرأت للمستشرقين ولسواهم فما وجدت ممن طعن منهم فى الإسلام حدة كهذه الحدة فى التعبير على نحو ما كتب الشيخ على عبدالرازق ".

ومغزى عبارة سعد زغلول تكمن فى ألا فرق بين الإخوان المسلمين والوفد فى مسألة ضرورة الخلافة. ولهذا

كان من المشروع تحالف الوفد الجديد برئاسة فؤاد سراج الدين مع الإخوان المسلمين. وقد جاءت المادة الثانية من الدستور التي تنص على أن مبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع معبرة عن ضرورة الخلافة وضرورة الحق الإلهي للحاكم.

والسؤال بعد ذلك:

ما الفارق بين جون لوك والشيخ على عبدالرازق مع أنهما معاً ضد الحق الإلهي للحاكم؟

أصبح لوك هو المنظر الأساسي للعلمانية في أوروبا في ضوء نظرية العقد الاجتماعي المكون الثاني لرباعية الديمقراطية والذي يأتي في المرتبة الثانية بعد المكون الأول وهو العلمانية.

أما الشيخ على عبدالرازق فقد أصبح الخائف الأساسي من ذكر كتابه إلى الحد الذي هدد فيه بإقامة دعوى قضائية ضد كل من يجرؤ على طبع كتابه ونشره، وأصبحت وسائل الإعلام والمؤسسات الحكومية والنقابات المهنية في خدمة حركة الإخوان المسلمين التي تدعو إلى التأسيس الديني للمجتمع والدولة



والوطن. ومصادرة الفكر الذى يدعو إلى النقيض من هذا  
التأسيس وهو العلمانية وما يلازمها من نظرية العقد الاجتماعى  
على نحو ما جاءت عند جون لوك أو على عبدالرازق.

## وأدنا التنوير

إذا كان التنوير يعنى ألا سلطان على العقل إلا العقل نفسه  
فمعنى ذلك أن وأد التنوير هو وأد للعقل.

والسؤال إذن:

ما معنى وأد العقل؟

لغة: الوأد هو الدفن حياً، والدفن حياً يعنى الخنق، والخنق  
عصر الحلق حتى الموت. وإذا كان الحلق هو الذى تخرج منه  
حروف الهجاء عند النطق، وإذا كان لفظ " منطق " مشتق من  
لفظ " نطق "، فالخنق إذن إبطال المنطق. ومعنى ذلك أن ثمة  
تماثلاً بين الخنق وإبطال المنطق.

والسؤال إذن:

ماذا نخنق لكي يتحقق إبطال العقل؟

نخنق البرهان، أى نخنق العملية الذهنية التى نقوم بها  
للتدليل على صحة فكرة أو فسادها. وقد تم خنق البرهان على يد

ابن الصلاح الشهرزورى الذى كان يعتبر، فى القرن السابع الهجرى، من أكبر أئمة الحديث. أفتى فقال: " وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومدخل الشر .. شر، وما يزعمه المنطقى للمنطق من أمر البرهان فقد أغنى الله عنه كل صحيح الذهن. ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها فقد خدعه الشيطان ومكر به ."

والسؤال بعد ذلك:

إذا كان الاشتغال بالبرهان زندقة. فماذا نشغل؟

نشغل بالأفاز تغنينا عن البرهان وهى على النحو الآتى:

مؤامرة وخيانة وعمالة. ومعنى هذه الألفاظ الثلاثة أنك إذا دخلت فى حلبة الحوار من أجل إقناع محاورك وعجزت عن إقناعه فأنت إزاء أحد أمرين: إما أن تعلن عجزك وتحاول بعد ذلك أن تكون على وعى بضرورة إصلاح هذا العجز، وإما أن تقنع بأنك من ملاك الحقيقة المطلقة وأن محاورك متآمر أو خائن أو عميل فى حده الأدنى أو أنه زنديق وكافر وملحد فى حده الأقصى.

وتأسيساً على ذلك تم وأد التنوير، ونمثل لما نقول من

أحوال مصر الثقافية فى القرنين التاسع عشر والعشرين. ففى القرن التاسع عشر أرسل محمد على بعثة علمية إلى فرنسا بقيادة رفاعة الطهطاوى من أجل نقل الثقافة الغربية وذلك بترجمتها. وإثر انتهاء زمن البعثة نشر رفاعة كتاباً عنوانه "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" (1834). جاء فيه "أن حكماء باريز لهم فى العلوم الحكمة حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب الدينية. من ثم فممن يرد الخوض فى لغة الفرنسية المشتملة على شىء من الفلسفة أن يتمكن من الكتاب والسنة وإلا ضاع يقينه". يقول ذلك وقد ترجم مدة إقامته فى فرنسا اثنى عشر كتاباً أو شذرة، وقرأ روح القوانين لمونتسكيو وعقد التأنس والاجتماع الإنسانى لروسو ومعجم الفلسفة لفولتير، وكل هذا يعنى أن رفاعة وهو ينقل ثقافة التنوير، فى فرنسا فى القرن الثامن عشر، كان يدعو فى الوقت نفسه إلى عدم تمثيل هذه الثقافة. ولهذا أخطأ ألبرت حورانى فى كتابه "الفكر العربى فى العصر الليبرالى" حين قرر أن فكر التنوير الأوروبى قد ترك أثراً فى رفاعة وفى العقل المصرى بفضل رفاعة. أضف إلى ذلك أن مخطوط كتاب "تخليص الإبريز" كانت به فقرات حذفها هو بنفسه .. من هذه الفقرات فقرة تتحدث عن إثبات

علماء الإفرنج لدوران الأرض حول الشمس، وكان مكانها فى  
المقالة السادسة فى آخر التعريف بالجغرافيا الفلكية.

والسؤال بعد ذلك هو على النحو الآتى:

ماذا يعنى تحذير رفاة الطهطاوى من قراءة أفكار  
التنوير وحذفه لنظرية دوران الأرض؟

يعنى أنه من الأفضل إبطال أعمال العقل فى الفلسفة وفى  
العلم. ويشير إلى هذا المعنى زكى نجيب محمود فى كتابه  
"تجديد الفكر العربى"، يقول: "إن السماء قد أمرت وعلى  
الأرض أن تطيع، وأن الخالق قد خطط وعلى المخلوق أن يقنع،  
وأنه إذا ما تعارضت الآخرة والدنيا كانت الآخرة أحق  
بالاختيار. العلاقة بين الطرفين ليست بالأخذ والعطاء، بل هى  
علاقة الحاكم والمحكوم، والحاكم مطلق السلطان. تلزم عن هذه  
حقيقة ثانية هى أن قوانين الأشياء والظواهر فى الطبيعة قد  
تطرده أو لا تطرد بحسب ما يشاء لها الحاكم السماوى المطلق.  
وإذا كانت هذه هى الصورة الكونية فلا بد أن تكون كذلك هى  
الصورة لحياة الإنسان فى مجتمعه، فلصاحب السلطان أن يريد  
وعلى الناس أن يطيعوا".

أنا أزيد هذا المعنى إيضاحاً بالقول إن حركة الإخوان المسلمين هي الداعية له بل هي المؤسسة له استناداً إلى فكر ابن تيمية " 1263 - 1330 " الذي يؤثر السمع على العقل ويُكفر من يستعين بالعقل في فهم النص الديني.

هذا هو ما فعلناه بالتتوير، والسخرية هنا أننا احتفلنا بمرور مائة عام على " التتوير " في مصر في عام 1992، وتصويب هذا الخطأ يكمن في قولنا إننا في ذلك العام قد احتفلنا بمرور مائة عام على " وأد العقل " .

## بترنا الليبرالية

فى اللغة العربية يقال " بتره " أى قطعه مستأصلاً، أى قلعه بأصله. وحيث إن الليبرالية هى المكون الرابع والأخير للديمقراطية التى أصلها فى المكون الأول وهو العلمانية فالقول ببترها يعنى قلعها بالعلمانية، أى قلعها هى والعلمانية فى وقت واحد. ومغزى هذا القول أن الليبرالية ليست ممكنة من غير العلمانية.

وهنا يثار سؤال بالمخالف لهذا القول:

هل يمكن أن تكون ليبرالياً من غير أن تكون علمانياً؟

جوابى بالسلب لأنه إذا كانت العلمانية هى التفكير بالنسبى وليس بالمطلق فاستبعادها من الليبرالية يعنى أن تكون الليبرالية هى التفكير بالمطلق، وعندئذ تكون مغموسة فى الأصولية، وهذا تناقض غير مشروع، أى مرفوض، أى ليس من الممكن رفعه. إلا أن ثمة رأياً آخر بالمضاد وهو القول بأن هذا التناقض مشروع وبالتالي يمكن رفعه، أى يمكن تجاوزه وذلك بصك

مصطلح جديد هو " الديمقراطية اللالبرالية "، وهو عنوان كتاب لمفكر أمريكي من أصل هندي اسمه فريد زكريا، رئيس تحرير مجلة " نيوزويك ". يستند في التدليل على صحة مصطلحه إلى مسلمة هي " طغيان الأغلبية " وتعنى أن الحكومة الديمقراطية تكمن في السلطة " المطلقة " للأغلبية. ويمثل لما يقول بما حدث في الهند عندما استقلت في عام 1947. كان نهرو رئيس الوزراء من عام 1947 إلى عام 1964، وكان يحكم باسم حزب المؤتمر الذى كان مهيمناً على جميع أنحاء الحياة الهندية وكان نهرو علمانياً ومتسامحاً دينياً، وقيل وقتها إن الهند تمارس الديمقراطية بحزب واحد.

والسؤال إذن:

ماذا حدث بعد ذلك؟

تأسس حزب هندوسى أصولى اسمه " براتيا جاناتا "، دفع بالشعب إلى الدخول فى المنظومة السياسية فضعف التيار العلمانى وتمكن هذا الحزب الأصولى من الفوز فى الانتخابات ومن يومها والهند تعاني من الإرهاب الدينى.

وما حدث فى الهند حدث فى مصر، كيف؟



قبل إن مصر - قبل ثورة 1952 - كانت دولة ديمقراطية، إذ كانت الأحزاب متعددة والتنافس على السلطة يُمارس في إطار الانتخابات، والأغلبية الفائزة هي التي تحكم، ومع ذلك كانت الليبرالية غائبة: وكان غيابها مردوداً إلى سببين: السبب الأول أن لفظ " العلمانية " كان مجرماً ومكفراً، والسبب الثانى أن سلطة الفرد كانت مصادرة، فقد أيد حزب الوفد، وهو حزب الأغلبية، مصادرة كتاب " الإسلام وأصول الحكم " للشيخ على عبدالرازق ( 1925 ) لأنه ضد الخلافة، وضد الحق الإلهى للحاكم ومع نظرية العقد الاجتماعى للفيلسوف الانجليزى جون لوك ( 1632 - 1704 ) والتي تقرر أن المجتمع من صنع البشر وليس من صنع الله. وأيد حزب الوفد أيضاً مصادرة كتاب " فى الشعر الجاهلى " لطفه حسين ( 1926 ) لأنه يتخذ من الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت منهجه فى نقد التراث.

وفى عام 1928 تأسس التيار الأصولى تحت عنوان " الإخوان المسلمون "، وهذا التيار يمتنع معه أن تكون سلطة الفرد فوق سلطة المجتمع لأنه يستند إلى مبدأ السمع والطاعة عند ابن تيمية.

وتأسيساً على ذلك كله يمكن القول بأن الليبرالية قد تم بترها قبل ثورة 1952، والسؤال بعد ذلك: ماذا حدث لليبرالية بعد الثورة؟ استمر غيابها ولكن بسبب مضاف إلى الأصولية وهو عودة الفرعونية. فقد أعلن الرئيس جمال عبدالناصر أنه قد تأثر برواية توفيق الحكيم المعنونة " عودة الروح " فأعدت قراءتها من جديد لكي اكتشف مغزى هذا التأثير فإذا بي أقرأ العبارة الآتية " نحن في انتظار خوفو جديد "، وأظن أن خوفو قد جاء بعد طول انتظار.

ثم جاء الرئيس أنور السادات وقال عبارتين لهما دلالة تاريخية وهما: " أنا فرعون مصر، والديمقراطية لها أنياب ". وأخيراً جاء الرئيس مبارك فواجه تناقضاً حاداً بين فرعونية كل من عبدالناصر والسادات المتمثلة في اعتقال مئات القيادات الفكرية والسياسية والدينية وفصل مجموعة من أساتذة الجامعات، وبين عشقه لإعمال العقل وبما ينطوى عليه من روح علمانية. وقد رفع هذا التناقض بالإفراج عن المعتقلين وإعادة أساتذة الجامعات إلى جامعاتهم. ومع ذلك فقد واجه تناقضاً أكثر حدة بين تيار أصولى يهيمن على مؤسسات الدولة ويحاول

" خلع " العقل من جذوره وبين عقول هائمة على وجهها فى التزامها بإعمال العقل. وقد اكتشف مبارك أن رفع هذا التناقض يكمن فى تعديل المادة 76 من مواد الدستور، التى تنص على أن اختيار رئيس الجمهورية يتم بالاستفتاء وليس بالانتخاب. والفارق بين الاستفتاء والانتخاب أن الأول يستلزم مرشحاً واحداً أما الثانى فيستلزم أكثر من مرشح واحد، والواحد هنا يرمز إلى المطلق لأن المطلق هو الوحيد الذى يقال عنه إنه واحد. ولذلك فإننا عندما نستفتى على واحد فهذا الواحد عندما يأتى إلى السلطة فإنه يأتى كمطلق، إلا أن أغلبية المتقنين قد انهالت بمعول الهدم على تعديل المادة 76. وهكذا تم بتر الليبرالية مرة ثانية، المرة الأولى فيما قبل ثورة 1952 والمرة الثانية فيما بعدها.

والسؤال إذن:

هل البتر الثانى معناه إيمان البتر؟

## الفصل الثالث

---

# حضارة واحدة بين رباعيتين

## حضارة واحدة بين ربايعتين متناقضتين

أكتب هذا العنوان وأنا أعلم أولاً أن الجمعية العامة للأمم المتحدة أطلقت على عام 2001 عام الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات. وأنا أعلم ثانياً أن جامعة الدول العربية عقدت مؤتمراً في نوفمبر 2001 عنوانه " حوار الحضارات: تواصل لا صراع ". وأنا أعلم ثالثاً أن ثمة ندوات ومؤتمرات دولية انعقدت من أجل إرساء دعائم حوار الحضارات. ولكني أعلم كذلك أن قرار الأمم المتحدة مردود إلى ما أحدثه كتاب صموئيل هنتجتون المعنون " تصادم الحضارات وإعادة بناء نظام عالمي " من جدل كوكبي حاد. ومع ذلك فإن هنتجتون ينحاز إلى القول بالحضارة الواحدة وهي الحضارة الغربية لأنها صانعة الحداثة. والحداثة، سلباً، تعنى أن الدولة ليس لها دين معين، وبالتالي فإنها تسمح بالتعددية والتقدم. والحداثة، إيجاباً، تعنى التحضر والتصنيع وحكم القانون والفردية والتمثيل النيابي. ومن هذه الزاوية فإن الحداثة لا تعنى أنها مسار غربي إنما تعنى أنها مسار حضاري.

وتأسيساً على ذلك يمكن القول بأن رباعية الديمقراطية  
"العلمانية ونظرية العقد الاجتماعى والتتوير والليبرالية " قد  
حدثت فى الغرب ولم تحدث فى مصر .

والسؤال إذن: لماذا حدثت الرباعية هناك ولم تحدث هنا؟

حدثت هناك بسبب بزوغ علماء وفلاسفة كانوا على وعى  
بمعيار التقدم الحضارى الذى يتجه من إبطال إعمال العقل بسبب  
غلبة الأسطورة إلى إعمال العقل بسبب غياب الأسطورة. وفى  
ذلك الاتجاه سار كوبرنيكس وجليليو وبرونو ولوثر ولوك وكانط  
وجون ستيوارت ميل، فى الفترة من القرن السادس عشر إلى  
القرن التاسع عشر. وكان من إبداعاتهم بزوغ رباعية  
الديمقراطية.

ولم يحدث عندنا بسبب بزوغ اثنين من عمالقة النضال  
ضد إعمال العقل وهما ابن تيمية وسيد قطب، وأنا أربط بين  
الاثنين على الرغم من تباعد المسافة الزمنية، إذ الأول من  
القرن الثالث عشر والثانى من القرن العشرين لأنهما الأساس  
الفكرى لحركة الإخوان المسلمين.

قال ابن تيمية فى كتابه المعنون " درء التعارض بين

العقل والنقل": " إن ما هو ثابت بالسمع فهو ثابت سواء علمنا بالعقل أو بغير العقل ثبوته أو لم نعلم بثبوته لا بعقل ولا بغيره. وإذا كان الشرع يقوم على السمع فيجب تقديم الشرع عند التعارض مع العقل، وتقديمه أيضاً عند التعارض مع إجماع الأمة لأن الإجماع يستلزم طاعة العقل للسمع. وهذه الطاعة تستلزم تنازل العقل عن استخدام المجاز في تأويل النص الديني لأن هذا النص لا يقبل المجاز. ولهذا فمن يخرج على الإجماع يكون موضع تكفير بالضرورة".

أما سيد قطب المنظر لحركة الإخوان المسلمين فقد قال في كتابه المعنون " المستقبل لهذا الدين ": " إن الثقافة المصرية ثقافة إسلامية وبالتالي يلزم بترها من الثقافة الغربية بسبب أن هذه الثقافة مصابة بمرض " الفصام النكد ". والفصام النكد يعنى الانفصال عن واقع شحيح النفع. وهو يقصد بذلك الواقع " النهضة وعصر التنوير والثورة الصناعية فى أوروبا ". والبدل عن هذه الثقافة " حاكمية الله " فى كتابه المعنون " معالم فى الطريق " حيث يقول: " إن مملكة الله لا تقوم بأن يتولى الحاكمية فى الأرض رجال ينطقون باسم الآلهة كما كان الحال فيما يعرف باسم " الثيوقراطية " أو الحكم الإلهى المقدس، ولكنها

تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة. وحين تكون كذلك تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحرراً كاملاً وحقيقياً من العبودية للبشر، وتكون هذه هي الحضارة الإنسانية. ومعنى ذلك أن مدلول الحاكمة لا ينحصر في تلقى الشرائع القانونية من الله وحده. إن الشريعة تعنى كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية، وهذا يتمثل في أصول الاعتقاد وأصول الحكم وأصول الأخلاق وأصول السلوك وأصول المعرفة أيضاً.



## ما بعد رباعية الديمقراطية

إذا كانت " رباعية الديمقراطية " لها زمان بدايته العلمانية في القرن السادس عشر والليبرالية في القرن التاسع عشر فالسؤال إذن: ماذا حدث في القرن العشرين؟

قيل عن القرن العشرين إنه زمن الثورة العلمية والتكنولوجية، والسؤال إذن: ماذا تعنى هذه الثورة؟

تعنى تغييراً جذرياً في رؤية العقل للكون. كانت هذه الرؤية في العصور الوسطى المعتمدة رؤية دينية، ولكنها تحولت في اتجاه رؤية علمية في القرن السادس عشر عند كل من كوبرنيكس وجاليليو ونيوتن. أعلن كوبرنيكس أن الشمس مركز الكون والأرض تدور حولها، وأشاع جاليليو هذا الإعلان مع تحديد قوانين سرعة سقوط الأجسام، ثم أوضح نيوتن أن القوى المؤثرة في سقوط الأجسام هي نفس القوى المؤثرة في حركة الأفلاك. وقد صيغت كل هذه الظواهر الكونية في معادلات

رياضية من صنع هذه العقول الثلاثة، انزعجت السلطة الدينية في روما من هذه الصياغة العلمية للكون فصادرت كتاب كوبرنيكس وحاكمت جاليليو، وكان من الممكن اضطهاد الفيلسوف الفرنسي ديكارت الملقب بأبي الفلسفة الحديثة لأنه كان يؤلف كتاباً عنوانه " عن العالم " على غرار ما كتبه كل من هذين العالمين لولا أنه امتنع عن نشره. وقد صدرت أجزاء منه بعد موته بسبع وعشرين سنة.

وفي القرن العشرين جاء عقل رابع هو عقل اينشتاين، ادخل تعديلات جوهرية في صياغات الرؤى الكونية للعقول الثلاثة فنشر في عام 1905 أربعة بحوث وكانت الغاية منها البحث عن " المجال الموحد " للقوى المتحركة في الكون وعددها أربع: الجاذبية والكهرومغناطيسية والتفاعل النووي الضعيف والتفاعل النووي القوي.

والسؤال إذن:

ماذا يعنى المجال الموحد؟

يعنى أن المعرفة العلمية متجهة نحو الوحدة على الرغم من تعدد مجالاتها. ومن هنا ورد إلى ذهنى مصطلح " وحدة

المعرفة" وهو مصطلح من وضع الفيلسوف الفرنسي ديدرو في عام 1755، إلا أنه كان يقصد به معنى الأنسيكلوبيديا، أى "الموسوعة"، أى جملة معارف، أما وحدة المعرفة التى أنشد تأسيسها فقد أوجزتها فيما أطلقت عليه " ثلاثية العلم "، وهذه الثلاثية مكونة من الفيزياء والسياسة والفلسفة. العلوم الطبيعية تُرد إلى الفيزياء، والعلوم الاجتماعية والإنسانية تُرد إلى السياسة، والفلسفة توحد بين العلمين فى رؤية كونية علمية. وفى هذا الإطار عقدت مؤتمراً دولياً فى القاهرة فى ديسمبر 1980 تحت عنوان "وحدة المعرفة " دعوت إليه نقرأ من الفلاسفة والعلماء كان من بينهم كبير فلاسفة بريطانيا السير ألفرد إير. قال فى كلمته الافتتاحية : " منذ خمسين عاماً كنا نناقش وحدة العلم فى حلقة فيينا، أما أنت فقد ذهبت إلى أبعد من ذلك، إذ تريد مناقشة وحدة العلم والفلسفة والدين ". وبعد ذلك المؤتمر تبنت جامعة تورنتو بكندا مشروعى عن "وحدة المعرفة"، ومع الوقت ارتأت هذه الجامعة أن مشروعى طموح للغاية فحورته إلى " تكامل المعرفة "، ومع ذلك شاع مصطلح وحدة المعرفة فى الغرب، إذ صدر كتاب مهم فى عام 1991 عن عالم الفيزياء النووية نيلز بوهر تحت عنوان " الفيزياء والفلسفة والسياسة "

وهو مماثل لعنوان بحثى المشار إليه آنفا. وفي عام 1998 صدر كتاب من تأليف إدوارد ويلسون وهو من أعظم مفكرى القرن العشرين، وعنوان كتابه " وحدة المعرفة " وفي عام 2005 انعقد مؤتمر دولى فى بروكسل ببلجيكا تحت عنوان "هل ثمة وحدة للمعرفة؟".

ومع بداية التسعينيات من القرن الماضى صك بيتر دركر عميد أساتذة الإدارة فى أمريكا مصطلح " مجتمع المعرفة " ويقصد به " مجتمع ما بعد الصناعى " ومعناه أن المعرفة قادرة على خلق مجتمع جديد، وهو مجتمع بازغ من ظاهرة جديدة هى ظاهرة الكوكبية، والكوكبية مصطلح معاصر ومعناه كوكب الأرض وما حدث له.

والسؤال إذن:

ماذا حدث لكوكب الأرض حتى يبرز منه مجتمع المعرفة؟

حدثت فيه ثلاث ظواهر: البريد الالكترونى، والانترنت والتجارة الالكترونية. وكان من شأن هذه الظواهر موت المسافة زمانياً ومكانياً، ومع موت المسافة تغير أسلوب رؤيتنا للكون، إذ

لم يعد دوجماتيقياً، أى لم يعد قابلاً لتوهم امتلاك الحقيقة المطلقة فتوارت الحقيقة وبزغت المعرفة وقلنا " انفجار المعرفة " و"وحدة المعرفة " و"مجتمع المعرفة" وكان كل ذلك من ثمار "رباعية الديمقراطية " .

الديمقراطية إذن حالة ذهنية خاصة بأسلوب رؤيتنا للكون. وقد تتحول إلى حالة سياسية ولكن بشرط أن تكون مرهونة بحالة ذهنية.

## الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
5	مدخل
11	الفصل الأول: رباعية الديمقراطية
13	• العلمانية
18	• نظرية العقد الاجتماعي
23	• التنوير
28	• الليبرالية
33	الفصل الثاني : ماذا فعلنا ب" رباعية الديمقراطية" ؟
35	• اغتالنا العلمانية
39	• صادرنا العقد الاجتماعي
44	• وأدنا التنوير
49	• بترنا الليبرالية
55	الفصل الثالث : حضارة واحدة بين رباعيتين
57	• حضارة واحدة بين رباعيتين متناقضتين
61	• ما بعد رباعية الديمقراطية



■ هذا الكتاب يثير سؤالاً خفياً هو على النحو الآتي:  
هل مسار الحضارة الغربية هو مسار الحضارة الإنسانية؟  
صاحب هذا الكتاب يتخذ مما يطلق عليه " رباعية  
الديمقراطية " منطلقاً للجواب عن هذا السؤال؟  
هذه الرباعية تعنى أولاً: أن للديمقراطية أربعة  
مكونات : العلمانية والعقد الاجتماعي والتنوير والليبرالية.  
وتعنى ثانياً: أن العلمانية هي نقطة البداية للديمقراطية  
والليبرالية هي نقطة نهايتها.  
وتعنى ثالثاً: أنه بدون هذه المكونات الأربعة فلا  
ديمقراطية.  
وتعنى رابعاً: أن تداول السلطة مرهون بممارسة مكونات  
هذه الرباعية.  
وتعنى خامساً: أن المسافة الزمنية المقطوعة من العلمانية  
إلى الليبرالية قد استغرقت أربعة قرون في أوروبا.  
ويبقى بعد ذلك سؤال:  
هل في الإمكان عبور هذه القرون الأربعة بقفزة  
حضارية واحدة؟  
جواب هذا السؤال متروك للقراء .

الناشر

العقيد شيرين ثابت